نماذج من الأدوار الهياهية لكتاب الخلفاء الأمويين

أ. مراد لكحل
جامعة المسيلة

ملخـــــــص

إن موضوع الأدوار السياسية للكتاب في الدولة الأموية موضوع من المواضيع التاريخية السياسية المهمة ،والهدف من هذه الدراسة الجادة هو معرفة مدى أثر هؤلاء الكتاب في تسيير الدولة، وكذا التقصي والاستقراء لإبراز أدوار شخصيات مطموسة لعبت دورا في سياسة الدولة وإدارة شؤونها ،كما أهدف إلى إبراز المكانة الهامة التي احتلها كتاب الدولة، وأثرهم على قوتها وضعفها وإلى أي مدى قد أخلصوا للدولة وخلفائها، لأنه كثيرا ما يُغفل هذا الدور إن لم نقل يُهمل نهائيا ،والإشكالية المطروحة هي: ماهي أهم الأدوار السياسية للكتاب في الدولة الأموية؟ وماهي مكانتهم عند خلفاء الدولة.

الكتابة والكتاب في عهد بني أمية:

كان لبني أميّة دورٌ بارزٌ في توطيد الإسلام وخدمته, والدّفع به إلى أقصى مدى ما وسعتهم طاقتهم والإمكانات التي توفرت لديهم, وعملوا بحرصٍ شديد على لمّ وحدة المسلمين والدفاع على ما فُتح وما لم يُفتح، وقد عرف المؤسّس الأول معاوية بن أبي سفيان ما للإدارة والإداريّين من كتّابٍ وغيرهم من أهمية في تحقيق أهداف ما يطلبه منه دينهُ, وما تتطلّبه الدولة الجديدة لتوطيد أركانها، وتتجلّى معرفة الأمويّين بهذه الأهميّة فيما استحدثهُ الخلفاء من أساليبَ وتنظيماتٍ إداريةٍ، وما ارتأوْه من حلولٍ للمشاكل التي واجهوها، وقد لعبت الكتابة كوسيلة والكتّاب كهيئة إدارية دورًا بارزًا في حلّ مشاكل الدّولة، ولهذا السبب عُنِيَت الدولة بهما عناية كبيرة، هذا بالإضافة إلى أن صناعة الكتابة صناعة شريفةٌ، تُشَدُّ إليها الرّحال وتُحدّق بها الأبصار، لما لصاحبها من مكانة اجتماعية وثقافية عالية بين النّاس وعند أهل الحُكم.

ونظرا لأهمية هؤلاء الكتاب الذين هم أحد أركان الدولة كان الدّافع لاختيار هذا الموضوع هو رغبتي في معرفة مدى أثرهم في تسيير الدولة، وكذلك حبّ التّقصي والاستقراء لإبراز شخصيات مطموسة لعبت دورا في سياسة الدّولة والإدارة والأدب والتاريخ، فالمعلوم الملاحظ أنّ الأحداث وتطوّر الدول ينسب دائما إلى الخلفاء والملوك، وفي المقابل تنسى أو تُغفل دور رجال أفذاذ، عملوا في الخفاء وتحت سلطة الحكام، وهم من لعب الدور الرئيسي في تسيير الدولة وتطوّرها.

كما أريد أن أبرز المكانة الهامة التي احتلّها كتاب الدّولة وأثرهم على قوّتها وضُعفها، وإلى أيّ مدى قد أخلصوا للدولة وخلفائها، لأنّه كثيرا ما يغفل هذا الدّور إن لم نقل يُهمَل نهائيًا، فالكاتب لم يكن دائما «بمجرّد صائغ فنّي مُحترف لرغبات الحاكم وأوامره، بل قد يصل أحيانا إلى أن يتدخّل في تكييفها أو يقتطع له قِسطا من السّلطة، وإذا كانت أجهزة الدّولة الإسلاميّة تنقسم إلى وظائف القلم... ووظائف

سرّهم... فإنّ نفوذ بعض الكتّاب قد وصل أحيانا إلى الجمع بين الوظيفتين[1].

وزيادة على ما ذكرنا أصبح الكاتب مأمونا في كل ما يكتب، ولا يفعل الخليفة أكثر من أن يُوقّع فقط، وأصبح الكاتب كالوزير وله رأي في أمور الدّولة وله سلطة عظيمة[2] ولقد كثر الكتاب في عصر بني أمية بعد أن نالت مهنة الكتابة التقدير والاحترام من الدولة والناس معا، وأصبحت وظيفة الكاتب وظيفة أولى، يتمتع صاحبها بالمكانة العالية لقرابته من الحكام[3] ومن أبرز هؤلاء:

– نماذج من الكتاب:

عمرو بن سعيد[4] كاتب معاوية على ديوان الجند، فمن الوظائف التي أسندت إليه بعد ذلك أنّه ولي مكّة والمدينة لمعاوية وابنه يزيد[5]، ولعلّ هذه الوظيفة من أهم ما كان يسند إلى الكتّاب، فتمنح لهم الولاية وحريّة التصرّف في الأقاليم.

ويروي ابن قتيبة أيضا أنّ عَمرو بن سعيد بعث وهو والي المدينة جيشا لقتال ابن الزّبير سنة 70هـ[6]، وكلّ هذا يثبت أن لعَمرو بن سعيد الدّور الرئيسي في توطيد

---

[1]– علي أومليل: **السلطة الثقافية والسلطة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998**، ص53، 54.

[2]–شوقي أبو خليل: **الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، دار الفكر، دمشق، 1994**، ص320.

[3]–عبد الحميد جيدة: **صناعة الكتابة عند العرب، دار العلوم العربية، بيروت، 1998، ص 42.**

[4]–الجهشياري أبو عبد الله محمد بن عبدوس:**الوزراء والكتاب ،تح عبد الله اسماعيل الصاوي، مطبعة** المشهد الحسيني، القاهرة ،**1938** ،ص **15.**

[5]–الذهبي: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير الأعلام، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي،** بيروت، **1989**، ج5، ص202. ابن كثير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل القرشي: البداية والنهاية، تح: أحمد شعبان بن أحمد، مكتبة الصفا، القاهرة، 2003، ج8، ص127.

[6]–ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم:الإمامة والسياسة المنسوب إليه، تح: محمد طه الزيني، دار المعرفة، بيروت, دط، ج2، ص3. ابن عساكر: المصدر السابق، ج46، ص40. الذهبي: المصدر السابق، ج5، ص205.

كما نذكر في الوظائف السيّاسية أنّ الخلفاء كانوا يستشيرون الكتّاب، ويلجؤون إليهم في أحلك الظروف، فلمّا حُوصر بنو أميّة بالمدينة قبل وقعة الحرّة[1]، كتب بنو أميّة إلى يزيد يستغيثونه، فاستشار عَمرو بن سعيد في أمرهم وأمره أن يسير إليهم[2]، فقال عمرو: «كنت قد ضبطتُ لك البلاد، وأحكمتُ الأمور، فأمّا الآن فإنما هي دماء قريش تُهراق، فلا أُحبّ أن أتولّى ذلك»[3].

وفي مجال توطيد الأمور للخلفاء نذكر أن عَمرو بن سعيد دخل مع مروان إلى مصر وأخذها من عامل ابن الزبير وهيّأ الأمور، فبايع النّاس مروان[4]، وبلغ الأمر وتطوّر الوظيفة بعَمرو أن رُشّح للخلافة، فالمعلوم أنّه لما اجتمع أعيان بني أمية بالجابيّة[5] لتعيين خليفة اتفقوا على البيعة لمروان بن الحكم وبعده خالد بن يزيد ثمّ عَمرو بن سعيد بن العاص، على أنّ إمرة دمشق لعَمرو وإمرة حمص لخالد[6].

ولكنّ مروان تراجع بعد ذلك وعقد البيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز[7]، ولما تولّى عبد الملك بقي عَمرو طامعًا في الخلافة، وفي سنة 70هـ سار عبد الملك إلى

---

(1)-كانت وقعة الحرّة سنة 63 هـ حيث خرج أهل المدينة على يزيد بن معاوية، فبعث إليهم جيشا لقتالهم، فقتل فيها خلق كثير من الصّحابة، وانتهكت حرمة المدينة واستبيحت. السيوطي جلال الدين: تاريخ الخلفاء، تح: أبو عبد الله محمد بن الجميل، دار البصيرة، الإسكندرية، 2004، ص210، 211.

(2)-ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: المنتظم ،تح: محمد عبد القادر عطا، دارالكتب العلمية ،بيروت،1995 ج6، ص13 ابن كثير: المصدر السابق، ج8، ص186.

(3)-ابن الجوزي: المصدر السابق، ج6، ص13.

(4)-النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الإرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1991، ج21، ص94. ابن كثير: المصدر السابق، ج8، ص217،216.

(5)-الجابية قرية من أعمال دمشق، ومؤتمر الجابية هو الاجتماع الذي بويع فيه لمروان، وكان يوم الاثنين للنصف من ذي القعدة سنة 64هـ. ابن عساكر: المصدر السابق، ج57، ص254.

(6)-النويري: المصدر السابق، ج21، ص87.

(7)-ابن الجوزي ،المصدر السابق، ج6، ص37. ابن كثير: المصدر السابق، ج8، ص263.

قَرقِيسيَاء[1]، وخلّف عَمرو بن سعيد بدمشق، فاستغلّ عمرو الفرصة وتحصّنَ بها ودعا الناس إلى بيعته، فلمّا سمع به عبد الملك كرّ راجعا إليه وأمّنه[2]، يقول الدّينوري: «وامتنع عَمرو بن سعيد عن البيعة ومات مروان وله ثلاث وستون سنة ثمّ ملك عبد الملك سنة 65هـ، فخرج عَمرو بن سعيد بن العاص عليه فصار أهل الشام فرقتين: فرقة مع عبد الملك، وفرقة مع عمرو بن سعيد، فدخلت بنو أميّة وأشراف أهل الشّام بينهما حتّى اصْطلحا على أن يكونا مشتركَيْن في الملك... وعلى أنّ اسم الخلافة لعبد الملك فإنّ مات عبد الملك فالخليفة من بعده عَمرو بن سعيد وكتبا فيما بينهما كتابا وأشهدا عليه أشراف أهل الشام»[3]، ولكنّ عبد الملك غدر به بعد ذلك وقتله سنة 70هـ.

فمن خلال هذا يتبيّن أنّ عمرو بن سعيد ولي المدينة ومكة، ووطّد السّلطة للخلفاء، وكان يُستشار في الأمور، بل بلغ به ارتقاء الوظيفة إلى أن رُشّح للخلافة.

وعلى الصعيد السيّاسي دائما يذكر الجهشياري أنّ يزيد بن معاوية كان يستشير سَرجون بن منصور، ومن ذلك لما بلغ يزيد مسير الحسين إلى الكوفة ومبايعة

---

[1]–تقع قَرقِيسياء شمال العراق، وقال ياقوت بأنها على نهر الخَابور في الإقليم الرابع، ولمّا فتح عِياض بن مسلم الجزيرة سنة 19هـ. وجّه حبيب بن مَسلمة الفِهري إليها ففتحها ياقوت الحموي أبو عبد الله بن عبد الله الرومي (ت626هـ):معجم البلدان، تح: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990، ج4، ص373.

[2]–اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت 284هـ)، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت. دط، ج2، ص270. المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 345هـ):مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، مؤسسة السعادة، مصر، 1958، ج3، ص 109–111. ابن الجوزي، المصدر السابق، ج6، ص 89–91. ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد الحضرمي: العبر وديوان المبتدإ والخبر، مؤسسة جمال للطباعة ،بيروت، ج3، ص31، 32.

[3]–الدينوري أبو حنيفة أحمد بن داود : الأخبار الطوال، تح: عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت, د ط، ص262.

أهلها له، استشار سَرجون فيمن يوجّهه إليها، فأشار عليه بعُبيد الله بن زياد –وكان يزيد كارها له– فقال: لا خير فيه ,فسمّ غيره، عندها قال سَرجون: أرأيت لو كان معاوية حيّا فأشار به عليك أكنت قابلاً؟ قال: نعم، فأخرج سَرجون له عهدا من معاوية لعُبيد الله بولاية الكوفة وعليه خاتمه، وقال: هذا عندي، ولم يمنعني من إخبارك به أوّل الأمر إلاّ علمي ببُغضك لعُبيد الله، فقال له: فأنفذ إليه، وكان عبيد الله يتولى البصرة فضمّ إليه الكوفة ووجّهه إلى الحُسين[1].

فالكتّاب إذا كانوا يتولّون الإشارة على الخلفاء، ويتدخّلون في تولية الولاّة وعزلهم، كما يتولون الاحتفاظ بكتب التّولية ويشرفون على تنفيذ ما فيها فهم بذلك مشاركون في السيّاسة مشاركة تعليمية، إذ لم يبخلوا بتوجيهاتهم السيّاسية على الخلفاء، ومرّروا بضاعتهم بطرقٍ خاصة[2].

فهذه الرّواية تُثبت أنّ الخلفاء كانوا يَلجؤون إلى الكتّاب في أحْلك الظّروف، ويستشيرونهم ويأخذون برأيهم في الأمور السيّاسيّة، فالكاتب بذلك مشارك في صياغة القرار، ومن هنا نفهم حق الفهم قول عبد الحميد في رسالته إلى الكتّاب: «...بكم ينتظِم الملك، وتستقيم للملوك أمورهم، وبتدبيركم وسياستكم يُصلح الله سلطانهم، ويجتمع فيهم وتَعمُر بلادهم، يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه، والوالي في القدر السّنيّ والدّنيّ من ولايته، لا يستغني عنكم منهم أحد ولا يوجد كافٍ إلاّ منكم...» [3].

---

[1]–المصدر السابق، ص19. مسكويه أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب : تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تح: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج2، ص25.

[2]–علي أو مليل: المرجع السابق، ص58.

[3]–الجهشياري: المصدر السابق، ص47. القلقشندي أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ج1، ص118. أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت, دط، ج2، ص456.

ونذكر في هذا الباب أن أبا الزُّعيزعة كاتب عبد الملك على الرسائل[1] كان واسطة بين الخليفة والرّعيّة، فيبلغ أوامره إلى النّاس وحوائجه[2]،وهو من تولى قتل عمرو بن سعيد مع عبد الملك، فساهم بذلك في توطّيد السّلطة والبلاد[3].

أما عن رَوح بن زِنباع كاتب عبد الملك على الرسائل[4] فالمعلوم أنّه هو من فصل الأمر في الخابيّة بعد اختلاف بني أميّة حول من يولّونه الخلافة، فاقترح عليهم مبايعة مروان بن الحكم[5]، وممّا نذكره من مهامّ روح أنّ عبد الملك لما قلّد أخاه بِشرا العراق ضمّ إليه رَوحًا ليكون مرافقا له في ولايته ومرشدًا، ولكنّ بِشرا تحايل عليه وأعاده إلى دمشق بعد ذلك[6].

وكان عبد الملك يستشير رَوحا في أموره، فكان عنده كالوزير[7]، يقول الذّهبي: «رَوح بن زِنباع سيّد جُذام، وأمير فلسطين، كان معظّما عند عبد الملك لا يكاد يفارقه وهو عنده بمنزلة الوزير»[8]، ويروي البلاذري أنّ الحجّاج سجن أحد الأشخاص، فأتى صاحبه إلى رَوح، وشكى له الحجّاج، فكلّم روح عبد الملك في

---

[1]–خليفة بن خياط :المصدر السابق، ص189،الجهشياري :المصدر السابق،ص21.

[2]–خليفة بن خياط :المصدر السابق، ص190. ابن عساكر، المصدر السابق، ج20، ص88. الذهبي، المصدر السابق، ج7، ص94.

[3]–البلاذري أحمد بن يحيى جابر، أنساب الأشراف، تح: سهيل زكار، رياض زركلي، دار الفكر، بيروت، 1996، ج6، ص59،60. ابن الجوزي: المصدر السابق، ج6، ص90.

[4]–الجهشياري :المصدر السابق،ص21.

[5]–ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت ج5، ص41. النويري: المصدر السابق، ج21، ص87.

[6]–الجهشياري: المصدر السابق، ص21، 22. المسعودي: المصدر السابق، ج3، ص117، 118.

[7]–ابن عساكر: المصدر السابق، ج18، ص240. الذهبي: المصدر السابق، ج6، ص61.

[8]–العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني 1985، ج1، ص72. ابن العماد الحنبلي أبو الفلاح عبد الحي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة ،بيروت، ج1، ص95.

شأنه، فبعث عبد الملك إلى الحجاج بإطلاق سراح المسجونين[1]. وليس هذا فحسب بل تعدّت مهمّة رَوح إلى أن تدخّل في أمر الخلافة، وأشار على عبد الملك أن ينفي لعَمرو بن سعيد ويولّيه الخلافة بعده، فرفض عبد الملك ذلك[2].

وبهذا يعدّ منصب كاتب الرّسائل من المناصب التي يطّلع صاحبها على خفايا وأسرار الدّولة، ولاختلاطه بالخليفة كان له أن يتدخّل في أمور الدّولة[3]، هذا ويذكر البلاذري أنّ والي المدينة لما خرج إلى قتال ابن الزّبير خلف على المدينة رَوح بن زنباع[4]، وهذه تدخل في عداد المهام والوظائف التي كلّف بها الكتّاب أيضا، كما نذكر أنّ رَوحًا كان أحد المقاتلين مع عبد الملك حين حاصر المدينة، وكان روح دخل أحد الأبراج واستقصى عن الجنود الخارجين بالمدينة ورجع بالمعلومات إلى عبد الملك[5].

وروى روح بأنّه دخل يوما على عبد الملك فوجده مهموما، فسأله عن سبب ذلك فقال: فكّرت فيمن أولّيه أمر العرب فأرشده رَوحٌ قائلا: أين أنت من الوليد رَيْحانة العرب وسيّدها، فعهد إليه عبد الملك[6]، ولعلّ كل هذه المواقف والتدّخلات والمهام التي أوكلت لرَوح بن زنباع تزيدنا قناعة واستدلالا على رِفعة الكتّاب، وتدخّلهم في بَلْورة السيّاسة وسيرها لقد ترك روح بن زنباع بصمات واضحة على حوادث عصره وظل مخلصا لخلفاء بني أمية، ومتجنبا لكل ما من شأنه أن يعكر صفو هذه العلاقة، وبقي على ولائه لهم حتى وفاته[7].

---

(1)–المصدر السابق، ج7، ص294.

(2)–أبو حنيفة الدّينوري: المصدر السابق، ص262.

(3)–محمد ضيف الله بطاينة: دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، دار الفرقان، عمان، 1999، ص190.

(4)–المصدر السابق ،ج5، ص357.

(5)–المصدر نفسه، ج7، ص47.

(6)–الذهبي: تاريخ الإسلام، ج6، ص497. السيّوطي: المصدر السابق، ص225.

(7)–أزهار هادي فاضل: روح بن زنباع وأثره في السياسة الأموية، مجلة التربية والعلم ،جامعة الموصل، مج 15، عدد2، 2008، ص96

ويذكر ابن عساكر أنّ سليمان بن سعد الخُشنيهو من اقترح على عبد الملك تولية الخلافة لأحد أبنائه، فقد كان مروان عهد إلى عبد الملك، ثم أخيه عبد العزيز بعده، ولكن عبد العزيز توفي قبل تولّيه، فدخل سليمان بن سعد على عبد الملك، وأشار عليه بتولية الوليد، والإرسال إلى أمراء الأجناد يستشيرهم[1].

وتشير الروايات أنّ عبد الملك استشار كاتبه على الرسائل ربيعة الجُرشيني تقليد ابنه الوليد العهد، فطلب منه ربيعة أن يمهله سنة، فأمهله عبد الملك، فلمّا انقضت السّنة عاوده وقال له: إنّي عزمتُ أن أولّيه شيئا من النّواحي، فإذا مضت له مدّة قلّدته النّواحي؛ فقال ربيعة: «يا أمير المؤمنين إنك بعثت الوليد يقسم الأموال بين النّاس ما رَضوا عنه فكيف تبعثه جَابيا؟ إن احتاط ذُمَّ، وإن رفق عجز، وأنت تريد أن تجيبه، فولّه المعاون والصّوائف، فيكون ذلك شرَفا وذكرا»[2]، وهذه إشارات وتوجيهات من الكاتب إلى الخليفة، حتى يحافظ على سير الدّولة واستقرار أمورها.

وقد نال قُبيصة بن ذُؤيب الحظّ الوافر من التدخلات السياسية، فقد كان خاصّا بعبد الملك، وبلغ من لَطافةِ محلّه منه أنّه كان يقرأ الكتب الواردة إلى عبد الملك قبله، ثمّ يدخل بها إليه مَفضوضة الختم، فيقرأها عليه ويُخبره بما فيها[3]، وقد كان كالحاجب عنده، وقد ذكرنا أنّه هو من أدخل الزُّهري على عبد الملك فوصله وفرض له[4]، ونظرًا لأهميّة ما يتولاّه قبيصة قال عبد الملك لحجّابه: «لا يُحجب عنّي قبيصة أيّ ساعة من ليل أو نهار، إذا كنت خاليا أو عندي رجل واحد، وإن كنت

---

[1]–المصدر السابق، ج22، ص318.

[2]–الجهشياري :المصدر السابق، ص22. مسكويه: المصدر السابق، ج2، ص257.

[3]–مسكوية: المصدر السابق، ج2، ص256. ابن عساكر: المصدر نفسه، ج49، ص253. الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك : الوافي والوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000، ج24، ص140. ابن كثير: المصدر السابق، ج9، ص62.

[4]–ابن قتيبة ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم : المعارف، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ص254.

عند النّساء أدخل المجلس، وأُعلمت بمكانه فدخل»[1].

ومن مظاهر تدخّلات قُبيصة في الجانب السيّاسي ما رواه ابن سعد وغيره من دفاعه عن سعيد بن المسيب، فقد دخل قُبيصة على عبد الملك بكتاب هشام بن إسماعيل[2] والي المدينة يذكر أنّه ضرب سعيدا وطاف به، وأشار عليه أن سعيدا ممّن لا يخشى فتقه ولا غوائله على الإسلام وأهله، وقال أكتب له يا أمير المؤمنين في ذلك، فقال عبد الملك، أكتب أنت إليه عنك، تخبره برأيي فيه، وما خالفني من ضرب هشام إيّاه، فكتب قُبيصة إلى سعيد بذلك، فقال سعيد حين قرأ الكتاب: الله بيني وبين من ظلمني[3].

ومن مظاهر مشاركات قُبيصة السيّاسة أيضا، رأيه في محمد بن الحنفية، الذي امتنع عن مبايعة عبد الملك، فقد استشار عبد الملك قُبيصة وروح بن زِنباع في أمره، فأشارا عليه بأخذ البيعة منه أو صرفه إلى الحجاز، أين سيتعرّض لمضايقه ابن الزبير، فاختار الحجاز[4].

---

[1]–تاريخ الطبري، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1960، ج6، ص412. ابن الجوزي: المصدر السابق، ج6، ص261. ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الشيباني : الكامل في التاريخ، طبع دار الكتاب العربي، بيروت، 1985، ج4، ص101. النّويري: المصدر السابق، ج21، ص275.

[2]–هو هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المُغيرة المخزومي، خال مروان بن الحكم والي المدينة، كانت ابنته زوجة عبد الملك بن مروان، فولاّه المدينة سنة 82. وحج بالناس سنة 83، 84، 85 وصرف سنة 87 في خلافة الوليد وتوفي بعدها. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج6، ص214،215 الزركلي خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1980، ج8، ص84.

[3]–تاريخ الطبري، ج5، ص126. البلاذري: المصدر السابق، ج7، ص257. الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981، ج4، ص230.

[4]–عبد الله بن عبد الرحمن ابن زيد الخرعان: أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، مكتبة الرشد: الرياض، 1424، ص127–129.

ومن المواقف السيّاسة لقُبيصة أيضا أنّ عبد الملك لما قتل عَمرو بن سعيد، علم بأن أصحاب عمرو يحيطون بالقصر، وقد احتار لأمرهم، فدخل قُبيصة صاحب مشورته فسأله عبد الملك: ما ترى في هؤلاء الذين أحدقوا بنا وأحاطوا بقصرنا؟ – يقصد أصحاب عَمرو–، فقال قُبيصة: اطرح رأسه إليهم يا أمير المؤمنين، ثمّ اطرح عليهم الدّنانير والدّراهم يتشاغلون بها، ففعل عبد الملك ذلك، فتشاغل أصحاب عَمرو بالدّنانير وتَناسَوا صاحبهم[1].

ومن مظاهر التّدَخلات السيّاسية لقُبيصة أيضا أنّه نصح عبد الملك لما أراد أن يَخلع أخاه عبد العزيز بأن لا يفعل، لأنّ ذلك يبعثُ له العار، وقال له: لعلّ الموت يأتيه فتستريح منه، فكفّ عبد الملك عن ذلك، ولكن نفسه بقيت تُنازعه أن يخلعه، فدخل عليه روح بعد ذلك ونصحه أن يخلعه وأنّ ذلك لا يجلُب له أيّ شيء، فقال له عبد الملك، نصبح إن شاء الله، فما أصبحا حتّى جاءهما الخبر بعد مدةمن قُبيصة بموت عبد العزيز، فقال قُبيصة لعبد الملك: الرّأي كلّه في الأناة والعجلة فيها ما فيها[2].

ولا شكّ أنّ ما همّ به عبد الملك من محاولة خلع أخيه إجراء سياسيٌّ خطير، يمكن أن يؤدّي بالدّولة إلى الانقسام، ولكن هذا لم يحصل بسبب نهي قُبيصة لعبد الملك، «ومن خلال هذا موقف هذا يمكن أن نستشفّ منهجه في التّعامل مع عبد الملك كمشير ووزير، ويتمثل ذلك المنهج في صدقه في النّصيحة، ومراعاة المصلحة العامّة للأمّة والدّولة...، ويمثل هذا الصّدق من قُبيصة ورحابة الصّدر من عبد الملك تسمو الأمم، ويَعمّ الخير وتتحقّق المصالح»[3].

---

[1]–ابن قتيبة: الإمامة والسّياسة، ج2، ص61، 62.

[2]–ابن سعد: الطبقات، ج5، ص233، 234. البلاذري: أنساب الأشراف، ج7، ص254. تاريخ الطبري ،ج6، ص412. الجهشياري: المصدر السابق، ص20. الحقيقة أن عبد العزيز ناشد أخاه ألا يُعكّر عليه بقية حياته فإنه لا يدري إلى أيهما سيسبق الموت.

[3]–عبد الله بن عبد الرحمن: الرجع السابق، ص136.

ومن خلال ما ذكرناه عن قُبيصة ومواقفه وتدخّلاته في مختلف القضايا يتّضح أثره في صياغة مواقف عبد الملك وقراراته في القضايا الخطيرة، كما يبرز أثره في إطفاء الفتن، وحسن معالجة المواقف، وهذا يثبت حرصه على مصلحة الأمة، ودوره في الحفاظ عليها من الانقسام والتّصدُّع.

ونشير إلى أنّ الأسباب التي دعت عبد الملك إلى تقريب قُبيصة وإيثاره ترجع إلى ثلاثة أمور:

– أولها أنّ عبد الملك كان قرينا لقُبيصة في العلم خلال إقامتها في المدينة.

– ثانيهما لعلّه يرجع إلى ما لمسه عبد الملك من وفاء قُبيصة لبني أمية إذ أنّ إصابة عينه يوم الحَرّة، توحي بمشاركته فيها مع الصّف الأموي.

– ثالثها ما يتمتّع به قُبيصة من روح مرنة تراعي الأحوال وتقدِّر المواقف، وتوازن بين المصالح[1].

ونختم كلامنا عن قُبيصة بالقول أنه بهذه المواقف« كان وزيرا لعبد الملك ومستشارا له، وساعده الأيمن في إدارة الدّولة وتصريف شؤونها، وكان ملازما له في سفره وإقامته، ومن خلال هذه المكانة الكبيرة والمنزلة العالية لقُبيصة عند عبد الملك، تمكّن من المشاركة في إدارة شؤون الدّولة مشاركة فعّالة، والإسهام بآرائه السّديدة في عدد من القضايا السيّاسية الكثيرة والمتنّوعة، وإن كان بعض هذه المواقف قد أشارت إليها العديد من المصادر، إلاّ أنّ هناك مواقف أخرى طويت... والسبّب في ذلك أنّ أكثر المصادر التي ترجمت للعلماء –ومنهم قُبيصة– اهتمّت بذكر الجوانب العديدة في حياتهم العلميّة، وأمّا ما يتعلّق بالجوانب السيّاسية فيأتي ذكرهُ عَرَضا»[2].

---

[1]–المرجع نفسه، ص120–122.

[2]–المرجع نفسه، ص126.

وممن نال الحظ الوافر أيضا على الساحة السياسية في فترة الحكم الأموي رجاء بن حيوة الكنديكاتب رسائل عمر بن عبدالعزيز [1] فقد كان كالوزير لسليمان[2]، وكان يصحب الخلفاء ويأمرهم بالمعروف، فلمّا مات عمر انقطع عن صحبتهم[3]، ومن المفيد أن نعرض هنا بعض الرّوايات والمواقف التي تبيّن مهام رجاء ودوره علي الصّعيد السيّاسي، فقد رُوي أنّ رجاء كان عند عبد الملك وذكر شخص بسوء، فقال عبد الملك: والله لئن أمكنني الله منه لأفعلَنّ ولأصنَعنّ، فلمّا أمكنه الله منه همّ بإيقاع الفعل به، فقال له رجاء: يا أمير المؤمنين، قد صنع الله لك ما أحببت، فأصنع ما يحبّ الله من العفو، فعفا عنه وأحسن إليه[4].

فهذا الموقف يبرز أنّ رجاء كان يتدخّل ليغير أو يعدل موقف الخليفة، بل أنّ عبد الملك كان يبعث بكتبه إلى النّاس مع رجاء فهو واسطة بينه وبين غيره من الرّعية والولاة[5]، ويذكر البلاذري أنّ عبد الملك أتي بأسرى وأراد أن يقتلهم، فقال له رجاء: أذكّرك ألاء الله عندك بالعفو، فعفا عبد الملك عنهم وفكّ أسرهم[6]، ومن هنا تبرز مكانة الكاتب وأهميّته، وفي ذلك يقول هاني العمد: «وتكمن أهميّة الكاتب في الإسلام في أنّه اكتسب منزلة جديدة، فأصبح كالحكيم المجرّب صاحب مكانة عالية، لاجتماع الكلمة والفكرة فيه، وهو صانع الرّأي، يستمع إليه صاحب الدولة ويعمل بنصيحته»[7].

---

(1)-الجهشياري :المصدر السابق،ص33.

(2)-الذهبي: تاريخ الإسلام، ج7، ص363.

(3)-ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: صفة الصفوة، دار الجيل، بيروت، 1992،ج2، ص387.

(4)-ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1972، ج2، ص302. ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج1، ص145.

(5)-البلاذري: المصدر السابق، ج7، ص48، 49.

(6)-المصدر نفسه، ص222.

(7)-أدب الكتابة والتأليف عند العرب، نظرة عامة، الجامعة الأردنية، عمان، 1986، ص20.

واستمرّ رجاء في تدخلاته السياسيّة في عهد سليمان، فقد قال عنه أبو نعيم: «الفقيه المفهّم المطعام، مشير الخلفاء والأمراء، رجاء بن حَيوة أبو المِقدام، كان قد أشار على سليمان أن يولّي أحد القضاة القضاء، فجاءه أحد الرجال وسأله، فقال: إنّي نظرتُ للعامة ولم انظر إليه»[1].

ولما مرض سليمان كتب كتابا يعهد فيه إلى أحد أبنائه– وكانوا صغارا لم يبلغوا الحلم– فأشار عليه رَجاء أن يولّي الرّجل الصّالح، وقال له: «إنّه ممّا يحفظ الخليفة في قبره أن يَستخلفَ الرّجل الصّالح، فتراجع سليمان، وأشار عليه رجاء بعمر بن عبد العزيز، وطلب منه أن يكتب له كتابا بذلك ففعل، وبقي الكتاب عند رجاء فخرج به إلى المسجد بعد وفاة سليمان وأخذ البيعة لعمر بن عبد العزيز»[2].

وهناك موقفان نُشيدُ بهما عند ذكر تدخّل رجاء في تولية عمر: أوّلهما أنّه لما كتب سليمان لعمر العهد وتركه عند رجاء، جاء هشام بن عبد الملك إلى رجاء وقال: يا رجاء إنّ لي بك حُرمة ومَودّة قديمة، وعندي شكر فأعلمني أهذا الأمر لي، فأبى رجاء، وقال: والله لا أخبرك حرفا واحدًا مما أُسِرّ إليّ، فانصرف هشام وهو يائس، وضرب الأرض برجليه وقال: «فإلى من إذا نُحِّيتُ عني، أتخرجُ من بني عبد الملك، فوالله إنّي لَعَيْنُ بني عبد الملك»[3].

فهذا الموقف الأوّل يدل على كفاءة رجاء وقدرته على تحمّل الأمانة وحفظه السّر، أما الموقف الثّاني الذي نشيد به فهو أنّ رجاء لما أعلن في المسجد بعد وفاة سليمان أنّ الخليفة عمر بن عبد العزيز، قال هشام: لا نبايعه أبدا، فقال رجاء:

---

[1]–أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت430هـ): حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، 1980، ج5، ص170، 171.

[2]–ابن سعد: الطبقات، ج5، ص 335–337. البلاذري: المصدر السابق، ج8، ص116. ابن عساكر :المصدر السابق، ج45، ص159، 160. ابن الجوزي: سيرة عمر بن عبد العزيز، دار الفجر، القاهرة، 1999ص47. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج5، ص123.

[3]–ابن سعد: الطبقات، ج5، ص336. 337. ابن الجوزي: سيرة عمر، ص47.

أضربُ والله عنقك قم فبايعْ، فقام هشام يجرّ رجليه فبايع[1]، ومن خلال هذا الموقف أيضا يتّضح أنّ للكتّاب مكانة بلغت حتى مكانة الخلفاء أنفسهم فتحكّموا في زمام الأمور.

وبعد استعراضنا لأثر رجاء في استخلاف عمر يتّضح لنا أمران: أوّلهما احتلال رجاء مكانة كبيرة عند سليمان، فقد تفرّد بالجلوس معه في خلواته، ويختصّ بأسراره، ويشير عليه في أخطر أمر في الدّولة، فأمام رجاء تضاءلت مكانة أفراد البيت الأموي، والقادة العسكريّين وكل الإداريين في الدولة، «وأيّ مكانة أكبر من أن يصير أمر الخلافة والدّولة بين كفّيْ رجاء، في كتاب لا يدري سواه ما فيه غير الخليفة، ولذا قيل ما نعلم أحدًا جازت شهادته وحده إلاّ رجاء بن حيوة، أي أنّه صدق على عهد عمر بن عبد العزيز وحده»[2].

والأمر الثاني الذي يظهر لنا هو ما يتمتّع به رجاء من حنكة سياسيّة، وحكمة في تنفيذ الأمور المهمّة، ويتجلّى ذلك من خلال نجاحه في كتمان الأمر حتّى عند أشدّ النّاس له محبّة عمر بن عبد العزيز، وهو الموقف نفسه الذي كان منه – كما أشرنا– مع هشام، وقد أسهم هذا الموقف من رجاء في نجاح الأمر وإنفاذِه[3]. ومن هنا نفهم جيدا قول علي أوميل: «وعلى الكاتب أن يُدبّر أمره ليس فقط كي يصوغه صياغة فنيّة بلاغية فحسب، بل عليه أيضا أن يكون عارفا بالمقاصد السياسية لصاحب الأمر، وأن يعرف كذلك مقام الذي يوجّه إليه الخطاب، وباختصار فالكاتب ليس مجرّد صائغ فنّي للمراسلات الرّسمية، بل بحكم اتّصاله بأعلى موقع لإصدار القرار، هو كاتب سياسي قبل كل شيء»[4].

---

[1]–الطبري: المصدر السابق، ج6، ص552.

[2]–عبد الله بن عبد الرحمن: المرجع السابق، ص153، 154.

[3]–المرجع نفسه، ص154، 155.

[4]–المرجع السابق، ص58.

وبعد وفاة سليمان وتولّي عمر الخلافة ظلّ رجاء يتبوّأ مكانة كبيرة ومنزلة عالية، من خلال قربه من عمر وملازمته له، حيث جعله عمر من خواصّه ومستشاريه، ويستنصحه في أمور العامّة والخاصّة[1]، وهذا منذ اللّحظة الأولى التي تولّى فيها عمر الخلافة، فقد جمع عمر حاشيته لما تقلّد الخلافة وقال لهم: إنّي ابتليت بهذا فأشيروا عليّ، فقال رجاء في صفة الرّجل الموجّه المرشد: «إن أردت النّجاة من عذاب الله غدًا، فأحبَّ للمسلمين ما تحبّ لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك ثمّ متى شئتَ متَّ»[2].

فهذه هي إذن جلّ المهام التي أسندت لرجاء ولعب فيها دورًا رئيسا وحسّاسا، ولكنّنا منذ عهد يزيد بن عبد الملك نرى رجاء يعتزل الخليفتين يزيد وهشام ابني عبد الملك، وذلك حين رأى أنّ قربه منهما لن يحقّق له ما كان يهدف إليه من الدفاع عن المصالح العامة، فاعتزاله يرمي إلى تحقيق السّلامة لنفسه من الإثم ببقائه مع يزيد، ومن بعده هشام، وهو يراهما يسيران بسيرة لا تحقق المصلحة العامة خاصة يزيد، ثمّ لعلّه رأى في اعتزاله ليزيد نوعا من إظهار عدم الرّضى بسياسته، واستمرّ رجاء في الابتعاد عن الخلافة والخليفة، زمن هشام، ورغم ذلك لم يبخل عليه بالنصّيحة[3].

ونشير في الجانب السياسي أيضا أنّ صالح بن جُبير الصُّدائي[4] كاتب الخراج كان يشير على عمر في أموره، فقد قال: «ربّما كلّمت عمر بن عبد العزيز في الشيء فيغضب، فأذكر أنّ في الكتاب مكتوب، اتّقِ غضبه الملك الشّاب، فأرفق به حتّى

---

[1]-عبد الله بن عبد الرحمن: المرجع السابق، ص155.

[2]-الطرطوشي أبو بكر محمد بن محمد الوليد الفهري المالكي: سراج الملوك، تح: نعمان صالح الصالح، دار العاذرية للطباعة والنشر، الرياض،2005، ص106. ابن عساكر: المصدر السابق، ج45، ص170.

[3]-عبد الله بن عبد الرّحمن: المرجع السابق، ص 155.

[4]-ابن منظور : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم:مختصر تاريخ دمشق، تح: سكينة الشهابي، دار الفكر، دمشق،1988، ج11،ص27.

يذهب غضبه، فيقول لي بعد ذلك، لا يمنعك يا صالح ما ترى منّا أن تُراجعنا في الأمر إذا رأيته»[1].

ونشير أيضا إلى أنّ سالما[2]كاتب هشام بن عبد الملك بعث بعد وفاة هشام إلى الوليد بن يزيد بكتاب يولّيه الخلافة[3]، وهذا الفعل من سالم يدل على تحكّمه في زمام الأمور بعد وفاة الخليفة، وهو مقارب لموقف رجاء بعد وفاة سليمان، بل أعظم من ذلك فسالم ولّى الوليد من تلقاء نفسه ودون إذن من الخليفة.

وتذكر المصادر أنّ هشام ولى كاتبه عُبيد الله بن الحَبحاب على الخراج وجند مصر[4]، فضبط أمورها، وسيَّر الغزاة إلى أرض السّودان، وعمل على تطوير دار صناعة المراكب البحرية، بتونس وأنشأ بها جامع الزّيتونة[5]، ثمّ ولاه هشام كامل المغرب حتّى الأندلس، وقام بعدّة فتوح في السّودان والمغرب، وأغزى ناحية صِقلية، وأصبح يتصرف في بلاد المغرب إلى أن قتل سنة 132[6].

فكل هذا يوضّح أنّ الكتّاب كانوا يتولّون بالإضافة إلى الكتابة العديد من المناصب السيّاسية، وكان لهم عميق الأثر على هذا الجانب، فلعبوا دورًا في تسيير وتوجيه سيّاسة الخلفاء.

ونشير إلى أنّ هناك تجاوزات بَدَرت من بعض الكتاب، ومن ذلك ما فعله عِياض بن مسلم كاتب هشام، فقد منع خُزّان الأموال من الإنفاق على هشام لما مرض، بل منعهم من تكفينه حين مات فكفّنه مولاه[7].

---

(1)–ابن عساكر: المصدر السابق، ج23، ص332. المزّي: المصدر السابق، ج13، ص24، 25.

(2)–خليفة بن خياط :المصدر السابق 23.

(3)–ابن الأثير: المصدر السابق، ج4، ص257.

(4)–خليفة بن خياط :المصدر السابق، 235.

(5)–الزركلي: المرجع السابق، ج4، ص192.

(6)–ابن عساكر: المصدر السابق، ج37، ص415، 416.

(7)–المصدر نفسه، ج47، ص285.

وهنا لا بد من كلمة وهي أنه لا ينبغي أن تُتخذ المخالفة الواحدة وسيلة للتّشهير في زمن من الأزمنة، أو بقعة من البقاع، وإنّما ينبغي أن يحاسب كل واحد لوحده ويحاكم على تصرّفاته.

وكما نلاحظ أنه لم يكن الكاتب دائما «مجرّد صائغ فنّي مُحترف لرغبات الحاكم وأوامره، بل قد يصل أحيانا إلى أن يتدخّل في تكييفها أو يقتطع له قِسطا من السّلطة، وإذا كانت أجهزة الدّولة الإسلاميّة تنقسم إلى وظائف القلم... ووظائف السّيف... فإنّ نفوذ بعض الكتّاب قد وصل أحيانا إلى الجمع بين وظائف السّيف والقلم»[1].

وبالإضافة إلى أنّ الكاتب مشارك في إصدار القرار, فهو مشارك أيضا في السّياسة مشاركة تعليميّة، فلم يبخلوا بتوجيهاتهم السّياسية على الحاكم، ونفذوا آرائهم بطرق مختلفة[2]، وزيادة على ما ذكرنا أصبح الكاتب مأمونا في كل ما يكتب، ولا يفعل الخليفة أكثر من أن يُوقّع فقط، وأصبح الكاتب كالوزير وله رأي في أمور الدّولة وله سلطة عظيمة[3].

وتذكر المصادر أن بَيْهس بن زُمَيل كان على خاتم الوليد بن يزيد وكان معه حين خرج عليه ابن عمّه يزيد بن الوليد، فأشار على الوليد بأن يسير إلى حمص باعتبارها مدينة حصينة، ثم يوجّه الجيوش إلى يزيد فيقتل أو يؤسر، فلم يأخذ الوليد برأيه[4]، وبغضّ النّظر عن أخذ الوليد برأيه أو عدمه, إلاّ أنّنا نستشفّ من هذه الرّواية أنّ بَيهس بن زميل كان يتدخل في سياسة الوليد ولا يتوانى في الإشارة عليه.

---

[1]-علي أومليل: المرجع السابق، ص53، 54.

[2]-المرجع نفسه، ص58.

[3]-شوقي أبو خليل: المرجع السابق، ص320.

[4]-ابن عساكر: المصدر السابق: ج63، ص337.

ونذكر أيضا أنّ قَطَنا كاتب ديوان الخاتم مولى يزيد النّاقص كان معه حين دعي إلى بيعته وكان ذا رأيٍ من بني أميّة[1]، كما كان حاجبا ليزيد، ولما حضرت هذا الأخير الوفاة قال قَطن: أصلح الله أمير المؤمنين، أنا رسول من وراء هذا الباب يناشدونك الله في دمائهم، ويسألونك بالله لما ولّيتَ أمرهم إبراهيم بن الوليد، فقطّب يزيد ثمّ نظر إليه وقال بيده على جبينه: أنا أولّي أمرهم إبراهيم، قالها مرّات ثمّ أُغمي عليه، فخرج قَطن وقعد في البيت الذي كان فيه، وافتعل كتابا على لسان يزيد بتوليه إبراهيم، ثمّ خرج بالكتاب وقرأه على النّاس، فبايع أهل الشّام إبراهيم وأذْعنوا[2]، يقول شوقي أبو خليل: «بلغت الجرأة بالكتّاب أنّ قَطنا مولى يزيد بن الوليد، وصاحب خاتمه وحاجبه كتب على لسان الخليفة يزيد كتابا بولاية العهد لإبراهيم بن الوليد، وقرأه على النّاس، فبايعوا لإبراهيم، خلافا لإرادة الخليفة المحتضر»[3].

وبغضّ النّظر عن كون فعل قطن تجاوزا وخيانة، نستنتج أنّه كان للكتّاب المكانة المهيبة والكلمة المسموعة، إذ أنّه بمجرّد أن خرج بالكتاب بايع النّاس، دون شكّ أو إعراض، وهذا الموقف كنّا شاهدناه مع رجاء بن حيوة كاتب سليمان وعمر.

ويذكر الجهشياري أنّ عَمرو بن عُتبة كاتب الرسائل [4]كان ملازما للوليد بن يزيد، فقال له يومًا: «يا أمير المؤمنين، إنّك تَلطُفني بالأنس وأنا أكْفِتُ ذلك بالهيبة لك، وأراك تأمر بأشياء أخلفها عليك، أفأسكتُ مطيعا أم أقول مشفقا؟ فقال: كلّ مقبول منك، ولله فينا علم، ونحن صائرون إليه»[5].

---

[1]–المصدر نفسه، ج49، ص342. ابن منظور: المصدر السابق، ج21، ص85.

[2]–الجهشياري: المصدر السابق، ص45. ابن عساكر: المصدر السابق، ج7، ص247. السيوطي: المصدر السابق، ص258.

[3]–شوقي أبو خليل: المرجع السابق، ص320.

[4]–المصدر السابق،ص44.

[5]–المصدر نفسه، ص44.

وبالنسبة لعبد الحميد الكاتب، فقد كتب قليلا عن هشام ثمّ كتب لمروان على ديوان الرسائل[1]، وكان في البداية معلّما بالكوفة وولي أرمينيّة والجزيرة[2]، ممّا ساعده على تكوين اتّصالات وعلاقات مع المقرّبين من الخلفاء، فبلغ عندهم مبلغًا كبيرا من التّقدير والاحترام[3]، ثمّ قام في خلافة مروان مقام الوزير[4]، ولعبد الحميد رسالتان شهيرتان: رسالة إلى الكتّاب وأخرى في نصيحته لولي العهد كتبها على لسان مروان إلى ابنه وليّ عهده عبد الله حين وجّهه لقتال الضّحاك بن قَيْس الفِهري[5] الخارجي، وكتابته للرّسالة هي مهمّة كلّف بها من قبل مروان، فانطوت هذه الرّسالة على دروس عظيمة في تربية أبناء الملوك وتلقينهم الأخلاق، وكذلك وضع خطط حربيّة يسير عليها وليّ العهد في قتال العدوّ، و«أثبت عبد الحميد من خلال هذه الرّسالة أنّه من علماء التّربية والنّفس، وأنّه عارف بالسيّاسة والإدارة والحرب، يستطيع أن يقود الجيوش بعلمه، كما يقود الممالك بقلمه»[6].

فقد جوّد عبد الحميد الكلام عن خطّة الحرب يريد أن يرفع بها مقام وليّ العهد، فأبان ذلك عن بعد نظره في سياسة الملك وسياسة الرّعية، ثم أنشأ للمكتوب إليه طريقا واضحًا في سلوكه مع جلسائه وبطانته، «وتا الله لقد لقّنَهُ هنا أدبا وحدّد له عادات أشبه بقواعد الحياة العامّة في الممالك المتحضّرة اليوم، والعقل البشري على

---

[1]–خليفة بن خياط :المصدر السابق، 267. الجهشياري، المصدر السابق،ص44.

[2]–محمّد كرد علي: أمراء البيان، دار الأمانة، بيروت، ص32. أحمد محمّد الحوفي: أدب السياسة في العصر الأموي، دار القلم، بيروت، ص559.

[3]–عبد الأمير شمس الدّين،: الفكر التربوي عند ابن المقفع، الجاحظ، عبدالحميد الكاتب، دار إقرأ، بيروت،ط1، 1985،ص24.

[4]–ابن الجوزي: المنتظم، ج7، ص318.

[5]–الضّحاك بن قيس الفِهري: زعيم خارجي خرج سنة 126، في مئتين من حرورية الجزيرة، استولى على المُوصل والكوفة، ولكن مروان بادر بقتله بضواحي ماردين سنة 129. ابن قتيبة: المعارف، ص233. الزركلي: المرجع السابق، ج3، ص215.

[6]–محمّد كرد علي: أمراء البيان، ص53.

كثرة ارتقائه جيلا فجيلا لن يبرحَ في دائرة نرى فيها ما كان يُستحسن من قبل ألف سنة يستحسن اليوم، وتلك القواعد التي يتمسّكون بها هي القواعد التي سنّها أجدادنا منذ ثلاثة عشر قرنا»[1].

فعبد الحميد بدأ إصلاحه بنصيحة الحكّام والولاّة، فنصحهم بالعلم والأدب، ثمّ التدبّر في أمور العامّة وأمور عمّاله، ونصحَهم بالمشورة وتعهّد الجند[2]، وبذلك وضع خططا لإقامة نظام جديد للدّولة والإدارة والسيّاسة، إلى جانب وضع القواعد العامّة لتربية، خاصّة تربية أبناء الخلفاء[3].

هذا ويذكر القلقشندي أنّ عبد الحميد كان يكتب عن مروان لبعض الولاّة يُوبّخهم على تقصيرهم ويرشدهم بأوامره[4]، وكان حاضرا مع مروان في جميع وقائعه عند آخر أمره[5]، ولما رأى عبد الحميد ظهور بني العبّاس أشار على مروان أن يُنكِح زعيمهم أحد بناته وقال له: «فإن ظهر كنت قد أعْلقتَ بينك وبينه شيئا، وإن كفيتَه لم تَشن بصهره، فرفض مروان الأخذ بهذه النّصيحة»[6].

وكتب عبد الحميد إلى أبي مُسلم الخُرساني، وقال لمروان قد كتبت كتابا إن نجَعَ فذاك وإلاّ فالهَلاك، فلمّا ورد الكتاب على أبي مسلم فتحه فإذا فيه:

تَحى السيّفُ أسطارَ البلاغة وانتحى ... لُيوتَ الوغى يَقْدِمن من كل جانبِ

فإن تَقدِموا نُعمِل سيوفًا شَحيـذةً ... يَهُون عليها العُتْب من كلّ عاتِبِ[7].

---

[1]- المرجع نفسه، ص62.

[2]- عبد الأمير شمس الدّين: المرجع السابق، ص41.

[3]- المرجع نفسه، ص24.

[4]- المصدر السابق، ج10، ص198.

[5]- ابن خلّكان: المصدر السابق، ج3، ص229.

[6]- الجهشياري: المصدر السابق، ص45.

[7]- الزركلي: المصدر السابق، ج7، ص254.

ولما أحسّ مروان بالهزيمة طلب من عبد الحميد أن يصير إلى العدوّ، فرفض عبد الحميد ذلك وفضل الموت معه وقال:

أُسرّ وفاءً ثمّ أُظهر غُدرةً فمن لي بعذر يُوسع النّاس ظاهرُهْ[1]

وكانت الخاتمة أن قُتل مروان وقتل بعده عبد الحميد على يد شرطة السّفاح[2].

وكل الأعمال والمشاهد السيّاسية لعبد الحميد تكشف عن عبقريته وحنكته، كما تكشف عن زخم الفكر السيّاسي الذي كان يتمتّع به العربي المسلم في هذه الفترة، فالشّروط التي اشترطها عبد الحميد هي شروط العمل السيّاسي، فهدف إلى تطبيق الفكر السيّاسي الدّيني في كل دوائر الدّولة الإسلاميّة[3].

وفي الختام يتجلّى لنا مما ذكرنا عن الكتاب أنّهم كانوا بأعلى مرتبة، فهم الوزراء وهم المستشارون، وهم أسندت أمور السيّاسة والرّئاسة، وبهم تحصّن الخليفة وإليهم لجأ، وكل الأعمال والمواقف السيّاسية التي ذكرناها شاهدة على ذلك.

وهكذا كان دور الكتاب بارزا على الساحة السياسية إبان فترة الحكم الأموي مما يوحي أنهم كانوا محركا فعالا في الدولة, والمتصفح لتاريخ الدولة الأموية يتوهم أن الخلفاء فقط هم من سير الدولة ودفع بعجلة التقدم والاستقرار السياسي فيها في حين تُحمل أونغفل عن رجال أفذاذ كانت لهم اليد والباع الثقيل فيها.

---

[1]-الجهشياري: المصدر السابق، ص51. النحاس أبو جعفر أحمد بن محمد: عمدة الكتاب، تح: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، بيروت ،2004 ص39، 40. ابن خلكان: المصدر السابق، ج3، ص229.

[2]-ابن عساكر: المصدر السابق، ج34، ص94، 95.

[3]-عبد الحميد جيدة: المرجع السابق، ص101، 102.